ساراواك:
جنّة ماليزيا الخفية

> تحقيق وتصوير:
دومينيك ميرل

ما كدت آكل البيتزا وأشاهد جي لينو في فندق هيلتون بورنيو حتى...
آوه، توقف هنا! هيلتون بورنيو؟ إن للصوت وقع غريب، حوّل إلى نسخة هوليوود!
اجمع صفا من الرجال البرابرة حاملي الرماح!
بالفعل، أنا في فندق هيلتون في كوشنغ، عاصمة ولاية ساراواك الماليزية في شمال بورنيو، والفندق شغال هنا لنحو 15 عاما، في الشارع الذي يقع فيه برغر كنغ وكنتاكي، والأفلام السينمائية الواسعة الانتشار التي يمكنك، في الواقع، أن تستأجر منها واحدا من الأفلام القديمة عن قاطعي الرؤوس في بورنيو.

كنت أعرف أن العاصمة الماليزية كوالالمبور تركت صف ما يسمى بـ"العالم الثالث" منذ ما لا يقل عن 20 عاما، وهي الآن تبدو أقرب ما تكون إلى مدينة مستقبلية متألقة ببرجيها التوأمين اللذين كانا ذات مرة أعلى برجين في العالم. لكن ماذا عن ساراواك؟ لقد سمعت أن هذه هي الحدود النهائية للعالم.

"لا تهتم"، قال لي دليلنا ماجانغ، وأضاف: "هناك بعض الماليزيين الذين يعتقدون أننا ما زلنا نعيش في الأشجار".

إنه في الثلاثينات من عمره، متزوج وله ثلاثة أولاد، نشأ ماجانغ في بيت يضم 22 أسرة من ساراواك وحيث يعيش أكثر من 100 من أفراد قبيلة تحت سقف واحد، مع قواطع تقسم المكان بينهم. وقد غادر ماجانغ هذا البيت الجماعي منذ حوالى سبع سنوات، وقد اتخذ الآن سكسوكة وأظفرا طويلا على الخنصر وقبعة بيسبول ماركة مقهى هارد روك. وكما تقول الأغنية "كيف لك أن تحتفظ بهم في البيت الجماعي بعدما شاهدوا كوشنغ؟"

لكن ماجانغ سيعود إلى أصوله في اليوم التالي ◄

مهرجان ماليزي

Colorful Malaysian festival

حيث قادنا في رحلة ثلاث ساعات بالسيارة إلى باتانغ آي لزيارة واحد من 5,000 تقريبا من البيوت الجماعية التي ما زالت تستخدم من قبل نحو 30٪ من سكان ساراواك، من أفراد قبائل داياك، وإبان، وبيدايوه وأورانغ أولو. وهذا الجزء من ساراواك هو الذي يشار إليه عادة باسم "الجنة الخفية".

وبعد مسيرتنا بالسيارة، ركبنا قاربا ضيقا طويلا لمدة 30 دقيقة للوصول إلى البيت الجماعي. ولم نجد رجالا يلبسون فقط ما يستر العورة أو يحملون الرماح للترحيب بنا. فمعظم أفراد القبيلة يرتدون الملابس الغربية هذه الايام، ولكننا لاحظنا جماجم بشرية حقيقية معلقة من السقف الخشبي في البيت الجماعي، وهي تبدو وكأنها مجموعة من جوز الهند، وقيل لنا إنها مجرد بقايا تذكارية من حملات جمع الرؤوس في الثلاثينات.

كان الشبان يعملون في مزارع الفلفل القريبة وحقول الأرز، وهما من أهم وسائل الدخل، إلى جانب بيع الخردوات المنزلية والتذكارات في البيت الجماعي. وهكذا رحب بنا من قبل ساحر متلفع بغطاء لعورته ومئزر من الريش ولكن هناك أيضا ساعة كوارتز على رسغه. وقال إنه تلقى وحيا أو "دعوة" لأن يصبح ساحرا قبل بضع سنوات، بعد تقاعده من قطف الفلفل. وهناك أيضا نحو 20 من النساء والأطفال المنتشرين في أنحاء البيت.

وهذا الساحر البورنيوي الذي يبدو في الستينات من عمره، كان يؤدي مشهدا مسرحيا من فرد واحد، وهو يقود النساء في رقص قبلي ثم أثبت لنا مهارته العالية في نفخ البوق، ورمي الرمح، وإدارة مصارعة الديكة، بعدها وضعت الحرف اليدوية على أرضية البيت وبدأ التسوّق.

يبدو أن مجموعتنا كانت تشاهد عرض "حفلة ما بعد الظهر"، وعندما خرجنا من البيت وصلت دفعة جديدة من السياح.

تتوفر اليوم الكهرباء والمياه الجارية في أكثر البيوت الجماعية، وبعضها مبني من الكونكريت بدلا من الخشب. وفي الحقيقة، انتهى بنا المطاف إلى المبيت في بيت جماعي من فئة خمسة نجوم، وقد سمي هيلتون، وهو الملك الثاني لسلسلة الفنادق هذه في بورنيو.

ساحر يمارس فن الرماية

Witch doctor demonstrates a blow dart

هذه المرة فقط، لم تكن هناك الأكلات السريعة التي تسد منافذ الطريق. على الاقل حتى الآن. وهيلتون هذا يقع في وسط واحد من أقدم الغابات الاستوائية في باتانغ آي.

الفندق مبني في شكل بيت جماعي تقليدي، ولكن بمجرد الدخول إليه يصبح أي تشابه مع البيت التراثي هو محض مصادفة. كل واحدة من غرفه المائة فيها كل خدمات الفنادق الفاخرة. واعتمادا على موقع غرفتكم، فانه يمكن أن يكون المشي إلى الإفطار طويلا.

وفي صباح اليوم التالي سافرنا إلى كوشنغ لامعان النظر في هذه العاصمة. تقع كوشنغ على بعد حوالى 30 ميلا على ساحل بحر الصين الجنوبي. اختار المستوطنون الأوائل هذا الموقع لأنه يمكّنهم من مراقبة القراصنة القادمين من البحر وقاطعي الرؤوس من البر. ولم تكن الحياة سهلة في ذلك الوقت.

يبلغ عدد سكان كوشنغ اليوم نحو نصف مليون. وهي تعرف في جميع أنحاء ماليزيا وأجزاء اخرى من آسيا بـ"مدينة القطط" نظرا لحبها لها. والاسم "كوشنغ" هو ترجمة حرفية لكلمة "قط" في لغة الملايو. ولذا سترون تماثيل القطط من جميع أنحاء المدينة، بل يوجد "متحف القطط" في مركز المدينة. لكن الغريب في الامر، إنني لا أستطيع تذكّر رؤية أي من القطط الحية التي تعيش في كوشنغ، وإن قيل لنا أن هناك سلالة خاصة من القطط المخططة كما هو في جلد النمر نتيجة تزاوجها مع القطط اليابانية عندما احتل اليابانيون ساراواك أثناء الحرب العالمية الثانية.

واجهة الماء في ساراواك على نهر كوشنغ قد تحولت من مخازن طويلة كئيبة إلى ساحات للنزهة مزدحمة بأكشاك الأكل الغريبة والمطاعم ومحلات الحرف. يعيش الناس هنا من جميع أعراق ساراواك التي تزيد على 25 عرقا، ولذا فإن هناك اختلافا كبيرا في المنتجات الحرفية.

قبالة واجهة الماء يوجد أهم سوق وأقدم شارع في المدينة وقلب كوشنغ القديمة. العديد من الصناعات اليدوية والدكاكين العتيقة يمكن أن تراها هنا أيضا، ولكن المشي يبطء كثيرا خلال هذا المكان، حيث يقوم الأهالي بالمساومة على البضائع.

وسط مدينة كوشنغ يمكن الدوران فيه بسرعة على الأقدام، فيمكن زيارة المعابد والمتاحف والأسواق والشوارع المزدحمة ◄

ومجمّعات التسوق الممتدة. وفعلنا ذلك، ثم نمنا جيدا في الليل استعدادا لمغامرتنا الأخيرة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي إلى الغابة الاستوائية الغامضة والخطيرة في الحديقة الوطنية في باكو.

على الأقل هذا ما قيل لنا مرارا وتكرارا، من اللحظة الأولى التي وضعنا فيها أقدامنا في ساراواك. هناك الكثير من المخلوقات الغريبة في الغابات الاستوائية، كما يقول الأهالي، بل ينبغي الحذر من القردة الجريئة، أكثر القرود خطورة على الارض. لقد أعطينا هذه الإنذارات:

1- لا تمعن النظر في عيونها، فسوف تعتقد أنكم تتحدونها، وربما هاجمتكم.

2- لا تبتسموا، فكشف الأسنان هو دليل لديها على العدوان.

3- لا يجوز وضع أي من مستحضرات الدهون، او حتى مزيل الروائح، لأن رائحة العطور تجعلها تتجه إلى العنف.

وهكذا وضع كل منا أنظف قمصاننا "القذرة"، ولم نكن قد اغتسلنا جميعا، وتوجهنا إلى باكو وسكانها المتوحشين. وكما يحدث غالبا في مثل هذه البعثات، لا يوجد بيت واحد في الغابة، ولكننا عثرنا على قرد نادر، وقد اقترب منا حتى اضطررنا لطرده بعد الاقتراب أكثر مما يكفي لأخذ صورة مقرّبة بالكاميرا.

باكو هي أقدم حديقة وطنية في ساراواك وهي، في الحقيقة، تأوي أغرب الحيوانات البرية والنباتات في العالم، بما في ذلك النباتات التي تأكل اللحم والأفاعي التي تطير من شجرة إلى شجرة، ونباتات مثل الكأس وبحجم اليد، ولها مادة لزجة في القاعدة، وعندما تدخل في كأسها القوارض أو الطيور الصغيرة، تلتصق بها وتدفن داخلها.

بالإضافة إلى القرود، تسكن باكو فصيلة من الخنازير ذات اللحى، والسحالى العملاقة، وأفاعي الحفر، وأكثر من 150 نوعا من الطيور. ولكن يبدو أنها جميعا كانت غائبة في يوم زيارتنا. أو ربما الغابة أصبحت متحضرة هذه الأيام. ■

(دومينيك ميرل كاتب
ومستشار سياحي مقره مونتريال)

راقص في حالة تقرب من الغيبوبة

Dancer transforming himself into a trance-like state

للمزيد من المعلومات عن ماليزيا وساراواك، الرجاء الإطلاع على الموقعين الألكترونيين التاليين:

www.tourismmalaysia.gov.my

www.sarawaktourism.com